الأسرار البلاغية
في
إبهام بعض الأعلام القرآنية

دكتور
محمد حمدى على عبد العاطى
الأستاذ المساعد بقسم البلاغة بالكلية

تقديم

القرآن الكريم مليئ بالأسرار البيانية، وحافل بالأساليب البلاغية، فالآية الواحدة لو تناولها متناول ليُخْرِجَ مافيها من بيان، ماوسعته الطاقة، حيث إن عجائب القرآن لاتنتهى ، وبلاغته لاتنفد، ومعينه من البيان لاينضب، فلا يمكن أن يصل إلى غايته إنسان، مهما أوتى من قوة البيان .

وسيظل القرآن الكريم - أبد الدهر - بما تتكشف فيه من أسرار - دليلاً ناطقاً، وشاهد صدق، على ماأودعه الله من سرٍّ مكنون، وبيان مستور، وإعجاز معجز، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ومن أسرار القرآن الكريم: إبهامه لبعض الأعلام وعدم ذكر أسمائها، ولم يكن هذا من باب السرد للأساليب، تُوَضَّح مرة، وتبهم أخرى، دون تعليل أو غرض بيانى، أو سر بلاغى، فحاشا القرآن أن يتصف بهذا .

إنما الأساليب القرآنية لها نظمها الخاص، بحيث تكون كل كلمة فيه، لها مع سابقتها، ولاحقتها دلالة، وبيان .

والتركيب لهذه الأساليب، له أغراضه، وخواصه، ومزاياه، بحيث يكون للإبهام مواطنه، وللتوضيح مواطنه، ففى كل من الذكر والحذف، والإظهار والإضمار، والتعريف والتنكير، والإبهام والتوضيح ، بلاغة، وكل فى موطنه كلام بليغ .

فكل كلمة فى القرآن الكريم، بل كل حرف من حروف هذه الكلمة، يمثل لبنة من لبنات هذا البناء المتكامل لهذه الأساليب

القرآنية . فسبحان من أحكم آياته، ثم فَصَّلها ، تنزيل من حكيم خبير.

وبعـــد

فسنتناول - بعون الله وتوفيقه - ما أبهم في القرآن من أعلام لنسبح وراء هذا الإبهام، نتحسس أسراره البلاغية، ودواعيه البيانية.

وبالنظر للأعلام المبهمة في كتاب الله تعالى : تبين أن لذلك أغراضه البلاغية، تلك التي دعت إلى مجيئه مبهماً، وسنذكر بعضاً من هذه الأغراض التي لاحت لنا من وراء الإبهام، لهذه الأعلام .

الأغراض البلاغية فيما أبهم من أعلام قرآنية

الغرض الأول

الاختصار والإيجاز، للاستغناء بذكره في موضع آخر

ويكون ذلك فيما أبهم في موضع ، للاستغناء ببيانه في موضع آخر. ومثل هذا النوع قوله تعالى : في فاتحة الكتاب :

«مالك يوم الدين»(١) . فنلاحظ أن الله سبحانه وتعالى، أتى بيوم الدين مبهماً، دون توضيح لمعناه، وذلك لغرض الإختصار في الكلام ، والإيجاز فيه، حيث إن البلاغة هي الإيجاز، وكان هذا الإبهام في هذه السورة مسكوتاً عنه، لأنه وُضِّح في سورة (الانفطار) في قوله تعالى: «وماأدراك مايوم الدين. ثم ماأدراك مايوم الدين. يوم لاتملك نفس لنفس شيئاً ، والأمر يومئذ لله»(٢) .

فيدلنا هذا على أن القرآن الكريم يفسِّر بعضه بعضاً، ويوضح بعضه بعضاً .

والسر البلاغي الكامن في هذا الغرض ، والباعث إلى الإبهام هو أن تذهب النفس فيه كل مذهب، فإذا ماحصلت عليه بعد بحث، وعلمت المراد منه بعد تشوف، وتشوق، استقر في الذهن ، ورسخ فيه،

---

(١) الفاتحة : ى/ ٣ .

(٢) الإنفطار : «/ ١٧، ١٨، ١٩ .

ووقع فى النفس خير موقع، فتكون لحفظه أصون، وعن نسيانه أبعد [١].

وليس أدل على ذلك من أنه قد فسر (يوم الدين) بالطاعة والشريعة، ففى اختلاف المراد وتعدده، تشوّق للنفس لمعرفة الصواب، فإذا ماحصلت عليه، استقر بها أعظم استقرار، ووقع فيها خير موقع وأوفاه [٢].

وقد يكون العدول عن يوم القيامة، إلى التعبير بيوم الدين، لغرض بلاغى آخر غير ماذكر، وهو (رعاية الفاصلة)، حيث إن جملة ماجاء بعد هذه الآية: (مالك يوم الدين) حتى نهاية السورة كانت فاصلته النون. [٣]

وهناك سر آخر كامن وراء الإبهام فى الآية الكريمة غير ماتقدم، ولاعجب فى ذلك، فاللطائف البلاغية يزاحم بعضها بعضاً فى كتاب الله تعالى، هذا السر البلاغى هو: (إفادة العموم)، من باب أن الدين يشمل جميع أحوال القيامة من ابتداء النشور، إلى السرمد الدائم، بل يكاد يتناول النشأة الأولى بأثرها، على أن يوم القيامة

---

(١) ينظر: البرهان ١/١٥٥، والإتقان ٤/٨٧، والكشاف ١/١١، وروح المعانى ١/٨٥، وشروح التلخيص ١/٢٨٩.

(٢) دلائل الإعجاز: ص١١٠، وشروح التلخيص ٢/١٢٦، ومختصر السعد ص١٠٧.

(٣) شروح التلخيص ص/١٤٣.

لايفهم منه الجزاء، مثل يوم الدين، وفى هذا بلاغة عظيمة فى التعبير (١) .

وعلى هذا فقوله تعالى فى سورة الانفطار: «يوم لاتملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله» (٢) . يُعَدُّ فى مقام البيان الإجمالى لمعنى يوم الدين، بعد أن أُبْهِم فى قوله تعالى : «وما أدراك مايوم الدين» .

وفى سورة (الانفطار) لفتة بيانية لطيفة جاءت من ناحيتين :

الأولى : فى إفادة خروجه عن دائرة الإدراء، فى قوله :«وما أدراك مايوم الدين»، إنجاز للوعد، حيث إن نفى الإدراء مشعر بالوعد الكريم بالإدراء، وذلك على ماروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال : (كل مافى القرآن من قوله : (ماأدراك) فقد أدراه ، وكل مافيه من قوله : «ومايدريك» فقد طوى عنه .

والأخرى : التفخيم، والتشويق ليوم الدين، فى قوله تعالى : «وماأدراك مايوم الدين. ثم ماأدراك مايوم الدين» .

ولايخفى مافى الآية من الاختصاص فى قوله «والأمر يومئذ لله» فاللام للاختصاص ، أى الأمر له تعالى وحده، لالغيره، فلا شركة لغيره، بل التصرف جميعه فى قبضته، جلت قدرته. وعظمت هيمنته على ملكه .

---

(١) ينظر روح المعانى ٨٥/١، وشروح التلخيص ١٢٦/٢ .

(٢) الانفطار : ى/ ١٧، ١٨ .

وبهذا البيان ظهر لنا مافى الإبهام والخفاء لهذه الأعلام من نواح بلاغية، وأسرار بيانية، كامنة خلف هذا الإبهام، تحتاج .. دائما - إلى بحث وتنقيب لنقف على مدى إعجاز القرآن الكريم الكامن فى بلاغته، وسحر بيانه[١].

ومما أُبهِم إختصاراً لذكره فى موضع آخر من كتاب الله : قوله تعالى : «صراط الذين أنعمت عليهم»[٢] ، فالاسم الموصول «الذين» أُبهِم المراد منه فى فاتحة الكتاب، لأن الله سبحانه وتعالى قد بينه، ووضح المراد فى قوله تعالى : «ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين»[٣] .

فقوله تعالى (صراط الذين) لم يكن فيه وضوح للمراد من الاسم الموصول فهو من المبهمات فى القرآن الكريم، ولهذا الإبهام، ذهبت آراء العلماء فى تفسيره كل مذهب، فتعددت أراؤهم، واختلفت تأويلاتهم فى هؤلاء الذين أنعم الله عليهم.

---

(١) الكشاف ١١/١ ، بغية الإيضاح ١٢٣/٢، دلائل الإعجاز ص١١٠، المطول ص٢٢٨، ونهاية الإيجاز : ص١٢٢، والشروح ٢٧٤/١ .

(٢) الفاتحة / ٧ .

(٣) النساء : ى/ ٦٩ .

فمنهم من ذهب إلى أن المراد الأنبياء ، ومنهم من ذهب إلى أنهم المؤمنون مطلقاً، ومنهم من ذهب إلى أنهم أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ومنهم من ذهب إلى أنهم : محمد (ص)، وأبو بكر ، وعمر (رضى الله عنهما) (١).

ولعل هذا هو السر البلاغى فى الإبهام بهذه الطرق وذلك من أجل أن تذهب فيه النفس كل مذهب، فيكون فى ذلك تقوية للمعنى، وتأكيد له، فيستقر فى الذهن فضل استقرار .

ثم تأتى آية النساء لترفع هذا الإبهام، وتذهب بهذا الغموض، وذلك فى قوله عز وجل: «ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً» (٢) .

وهذا مروى عن ابن عباس ، فيما أخرجه ابن جرير - رضى الله عنهما - من أن المراد بـ «الذين أنعمت عليهم» هم الأنبياء ، والملائكة، والشهداء، والصديقون، ومن أطاع الله وعبده). وهذا هو بعينه ماتشير إليه سورة النساء .

والسر البلاغى هو الإيجاز والتشويق ، حتى يرسخ فى النفس بعد توضيحه، فيستقر فيها استقراراً كاملاً، وعند ذلك تكون المتعة

---

(١) روح المعانى ٥/ ٧٥ .

(٢) النساء : ى/ ٦٩ .

النفسية، والسعادة الروحية ، للوصول إلى البغية(١).

ومما هو من هذا القبيل، قوله تعالى :

«يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين»(٢).

وقوله تعالى : «للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون»(٣) .

ففى آية التوبة أبهم الله تعالى المراد بالصادقين، حيث لم يخبر من هم؟، ولذا ذهبت النفس فى تفسيرهم كل مذهب، فهل هم الذين صدقوا فى إيمانهم، ومعاهدتهم الله ورسوله على الطاعة؟، أو المراد العموم؟ ، بمعنى الذين صدقوا فى الدين نية، وقولاً، وعملاً، أو المراد الخصوص؟، بمن تخلف وربط نفسه بالسوارى ؟ .

ولذا جاءت آية (الحشر) لتزيل هذا الإبهام، وتوضح الغموض الذى قد يقع فيه السامع ، فأذهبت اللبس، وعينت أن المراد بهم: (الرسول وأصحابه) من أهل مكة .

فعن سعيد بن جبير ، أن المراد: كونوا مع أبى بكر، وعمر، رضى الله عنهما .

---

(١) البرهان ١/ ١٥٥، والإتقان ٤/ ٧٩ ، الكشاف ١/ ٥٣٠، المطول ص٢٨٨، وروح المعانى ٥/ ٧٥، وبغية الإيضاح ٢/ ١٢٣.

(٢) التوبة : ٩/ ١١ .

(٣) الحشر : ى/ ٨ .

ومما لاشك فيه أن التوضيح بعد الإبهام يعتبر من أهم الأغراض البلاغية، وأن الاستغناء عن التوضيح فى موضع، للاكتفاء بما ذكر فى موضع آخر، ينم عن غرض بلاغى أصيل هو : (الإيجاز) والتشويق) (١) .

---

(١) ينظر : البرهان ١/١٥٥ ، وروح المعانى ٢٨/٥٠، وبغية الإيضاح ٢/١٢٤، ومختصر السعد ص١٠٧، والمطول ص٢٨٨، وأسرار البلاغة ص٣٣٣، والصناعتين ص١٧٧، والشروح ١/٢٧٤، النكت فى إعجاز القرآن ص٧٠ .

الغرض الثانى

أن يكون معيناً لاشتهاره :

جاء هذا الغرض بعد سابقه مباشرة، لشدة صلته به حيث إن السر البلاغى فيه هو (الإيجاز، والاختصار) كسابقه، ويتمثل هذا الغرض فى كل من هذه النصوص القرآنية الكريمة : -

قوله تعالى : «وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة»(١).

فالقرآن قد اكتفى بقوله : (وزوجك) دون ذكر اسمها : (حواء) لشهرة ذلك، وتعينه فى النفس ، فلا يذهب إلى غيرها، لأن أمرها أصبح معروفاً مشهوراً لدى الجميع .

ومنه قوله تعالى : «لاتقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا»(٢) فأبهم المسجد لشهرته، وأن المراد به هو مسجد رسول الله (ص)(٣).

ومنه قوله تعالى : «واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر»(٤).

فأبهم المراد من قوله (ابنى آدم)، دون أن يقول : (قابيل، وهابيل) وذلك لشهرته ، والعلم به، فكان فى الحذف بلاغة الإيجاز، والاختصار(٥).

ونكتفى بهذا القدر من الحديث عن هذا الغرض البلاغى لننتقل إلى أغراض أخرى تتوارى فى طيات الإبهام لهذه الأعلام .

---

(١) البقرة : ى/ ٣٥ .
(٢) التوبة : ٩/ ١٠٨ .
(٣) الكشاف ٢/١٠٩، وشروح التلخيص ١/٢٨٩، والبرهان ١/١٥٥.
(٤) المائدة : ى/ ٢٧ .
(٥) الكشاف ١/٢٦٣، وروح المعانى٧/٢٢٤، وأسرار البلاغة ص٢٣٣.

الغرض الثالث

قصد الستر عليه، ليكون أبلغ فى استعطافه

ويتمثل هذا الغرض فيما يأتى من نصوص قرآنية كريمة :

منها : قوله تعالى :«ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على مافى قلبه وهو ألد الخصام»(١) .

ففى هذه الآية الكريمة إبهام للمراد من قوله : «ومن الناس»، وذلك لسر بلاغى هو قصد الستر عليه، وعدم افتضاح أمره واخفاء شأنه، من أجل أن يكون ذلك أبلغ فى استعطافه، واستلانة قلبه، وترقيق فؤاده، فيرجع عن غيه، ويقلع عن عاداته، ويعود إلى رشده.(٢)

وهذا يشبه مع الفارق مسلك النبوة الذى ربى الرسول عليه أمته، لأنه (ص) تربى على مائدة القرآن الكريم، فكان عليه السلام عندما يعلم خطأ إنسان ما، لايواجهه بالنصيحة ، ولاينهره مواجهة، حتى لايفتضح وسط أهليه، وأصحابه، ولذا كان (صلى الله عليه سلم) يقول : (مابال أقوام يفعلون كذا؟) معرضاً بصاحب الخطيئة ، دون ذكر لاسمه حتى تجدى معه النصيحة ، ويرتدع ، وذلك لما فى هذا الأسلوب من ترقيق للقلب، واستعطاف للنفس .

---

(١) البقرة : ى/ ٢٠٤ .

(٢) ينظر : روح المعانى ٢/٩٤، ٩٥ .

وهذا هو الحال فى هذه الآية، فالله سبحانه وتعالى لم يذكر اسم من تحدث من المنافقين، فقال : (ومن الناس) والمقصود: «أخنس بن شريق الثقفى» ، أقبل إلى النبى (ص) فى المدينة فأظهر له الإسلام، فأعجب النبى (ص) بذلك، وعند خروجه مَرَّ بزرع للمسلمين، وَحُمُر، فأحرق الزرع، والحمر .

وعلى هذا فالغرض من إخفاء الإسم وإبهامه غرض بلاغى، هو استعطاف، واسترقاق، واستمالة قلب المخاطب، لاستجدائه ، وسرعة استجابته[١].

ومن هذا القبيل قوله تعالى : «وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون»[٢] .

فجاء القرآن بلفظ (طائفة) مبهماً، دون تعيين المراد، لهذا الغرض البلاغى السابق ، ولذلك عدل عن قوله : وقال كعب بن الأشرف ، ومالك بن الصيف، حتى يستل ضغائنهم، ويسلب أحقادهم ، فلا يتمادوا فى معاداتهم للإسلام والمسلمين[٣].

ومن هذا القبيل أيضاً: قوله تعالى : «أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل، ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل»[٤] .

---

(١) الشروح ٢/ ١٤٠، ومختصر السعد صـ١٠٧ .

(٢) آل عمران : ى / ٧٢ .

(٣) الشروح ٢/ ١٤٠، والبرهان ١/ ١٥٥ .

(٤) الإتقان ٤/ ٧٨، والمطول ص٧٤، والشروح ٢/ ١٤١ .

فالخطاب فى الآية لرافع بن حريملة، ووهب بن زيد، عندما قالا لرسول الله (ص) : يامحمد ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه، وفجر لنا الأرض أنهاراً نتبعك، ونصدقك، فنزلت هذه الآية للرد عليهم، دون ذكر أسمائهم، وإنما أبهم الله تعالى أسماءهم سَلاً لأحقادهم ، واستمالة لقلوبهم، واستطياباً لنفوسهم ، مبالغة فى استعطافهم، وهذا يعتبر من البلاغة بمكان[٢] .

---

(١) الإتقان ٧٨/٤، والمطول ص٧٤، والشروح ١٤١/٢ .

الغرض الرابع

الإشارة إلى عدم الفائدة فى تعيين المبهم :

ويتمثل هذا الغرض فى آيات كثيرة من كتاب الله تعالى :

مثل : قوله تعالى : «فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً»[١] .

فجاء القرآن بلفظ (القرية) مبهماً، دون تحديد لاسمها، إشارة إلى أنه لايتعلق بذكر اسمها كبير غرض، ولازيادة فائدة، حيث أريد بيان ماحدث بها من بناء الجدار دون أجر، مما جعل موسى يقول «لوشئت لاتخذت عليه أجرا» .

أما كون هذه القرية هى : أنطاكية، أو برقة، أو باجروان، أو الناصرة، فلا يعود على السياق، أو المعنى فى شئ، فلما لم يتعلق بتعيين اسمها كبير غرض، أو زيادة فائدة حذفه النص القرآنى واكتفى بذكرها مبهمة[٢] .

ومن هذا القبيل قوله تعالى : «أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه»[٣] .

---

(١) الكهف: ى/ ٧٧ .

(٢) ينظر : حاشية الدسوقى، ضمن شروح التلخيص ١/٢٧٤، الكشاف ٢/ ٣٧٠ .

(٣) البقرة : ى/ ٢٥٩ .

وقوله تعالي : «فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما أمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين»[١] .

فأبهم الله سبحانه وتعالى لفظ (القرية) ولم يوضح ماهى ؟ حيث لايتعلق بذكرها كبير غرض، ولذا عدل القرآن عن بيان أن المراد بالقرية فى سورة (البقرة) بيت المقدس، وفى سورة يونس «نينوى»، لعدم الفائدة من وراء ذكرها، فأبهم للاختصار ولعدم إطالة الكلام دون داع .

ويلاحظ أن فى هذا الإبهام أيضاً مزيد تشويق للمخاطب، فى معرفة اسم هذه القرية التى أبهم المراد منها، ولاشك أن التشويق من الأغراض البلاغية التى تكمن طى الحذف لهذه الأعلام[٢] .

---

(١) يونس : ى / ٩٨ .

(٢) الإتقان ٤/٧٩، البرهان ١/١٥٦، الكشاف ٢/٣٧٠، وروح المعانى ٣/٤٧ .

الغرض الخامس

إفادة التعميم :

الإبهام لإفادة التعميم من الأغراض البلاغية المنشودة عند البيانيين، وذلك من أجل أن يكون الأمر شائعاً فى جنسه، عاماً فى أفراده ، لاتساع القاعدة .

ويمثل هذا الغرض قول الحق عز وجل :

«ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة»[١] .

ففى هذه الآية أبهم المراد من قوله : (ومن يهاجر) ، فلم يعين المراد من اسم الموصول (من)، ولذا اختلف فى شأن من نزلت فيه هذه الآية فقيل : نزلت فى جندب بن صخرة، وقيل : فى أكثم بن صيفى، لما أسلم ومات وهو مهاجر، وقيل : فى خالد بن حزام، وكان قد هاجر إلى الحبشة فنهشته حية فى الطريق فمات[٢] ، وأيا كان فالآية أبهمت المراد من الاسم الموصول لإفادة العموم، حيث إن العبرة بعموم اللفظ، لابخصوص السبب .

ولهذا السر البلاغى حدثنا عكرمة : أنه قد أقام أربع عشرة سنة يسأل عن الذى خرج من بيته فأدركه الموت، حتى عرف أنه

---

(١) النساء : ى/ ١٠٠ .

(٢) ينظر : روح المعانى ١٢٧/٥، الكشاف ٥٥٦/١ .

ضمرة ابن العيص، كان من المستضعفين بمكة؛ وكان مريضاً ، ولما نزلت آية الهجرة خرج منها فمات بالتنعيم)[١] .

ومنه قوله تعالى : «الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون»[٢] .

فأبهم المراد من قوله (الذين ينفقون) ، دون أن يذكر القرآن أسماء هؤلاء المنافقين، وذلك بقصد التعميم ، من أجل أن تذهب النفس فى تعيينهم كل مذهب، فمن قائل إنها نزلت فى الإمام على وآل بيته، ومن قائل: إنها نزلت فى سيدنا عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، لتجهيزهما جيش العسرة، ولأجل هذا الاختلاف، كان القصد إلى التعميم، وهذا هو السر البلاغى الكامن فى هذا الغرض[٣] .

ومما هو من هذا القبيل : قوله تعالى : «يسئلونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وماعلمتم من الجوارح....»[٤] .

فالقرآن الكريم أبهم المراد من فاعل (يسئلونك)، وسر هذا الإبهام هو إفادة التعميم، ولذا اختلف فى المراد من هذا الإبهام،

---

(١) ينظر الشروح : ١٢٦/٢ ، الكشاف ٥٥٦/١، والإتقان ٨٠/٤، روح المعانى ١٢٧/٥ .

(٢) البقرة : ى/ ٢٧٤ .

(٣) الكشاف ٣١٩/١، وروح المعانى ٤٧/٣ .

(٤) المائدة : ى/ ٤ .

فقيل : نزلت فى عاصم بن عدى، حيث سأل رسول الله (ص) عما أحل من الصيد، والذبائح ، والمطاعم، والمآكل، فهو شروع فى تفصيل المحلَّلات التى ذكر بعضها على وجه الإجمال إثر بيان المحرمات[١] .

وقيل نزلت فى عدى بن حاتم كان له كلاب فسماها بأسماء أعلام . فقد روى عن أبى رافع - فى سنن البيهقى - أنه قال : جاء جبريل - عليه السلام - إلى النبى (ص) فاستأذن عليه فأذن له ، فأبطأ، فأخذ رداءه فخرج إليه وهو قائم بالباب فقال عليه السلام: قد أذنا لك، قال : أجل ولكنا لاندخل بيتاً فيه صورة ولاكلب، فنظروا فإذا فى بعض بيوتهم جرو، قال أبو رافع: فأمرنى (ص) أن أقتل كل كلب بالمدينة ففعلت .

وهذا الاختلاف فى المراد هو السر البلاغى لإفادة التعميم[٢] .

---

(١) الكشاف ١/٦٠٥، الإتقان ٤/٧٩ .

(٢) ينظر : روح المعانى ٦/٦٢، الكشاف ١/٦٩٥، الإتقان ٤/٧٩ .

الغرض السادس
إفادة ان التعظيم بالوصف الكامل دون الاسم :

وهذه الإفادة التى تكون بالوصف دون الإسم، تتمثل فى هذه النصوص القرآنية الكريمة :-

قوله تعالى : «ولايأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم»(١) .

فالله سبحانه وتعالى قصد من إبهام الإسم المراد من الوصف فى قوله : «أولوا الفضل منكم والسعة» إلى تعظيم المشار إليه بالصفة ، حيث إن المراد به :الزيادة فى الدين، والسعة فى المال، وهو جدير بهذا التعظيم ، لأنه الخليفة الأول لرسول الله (ص) ، وهو المتفضل بما له على المحتاجين، وعلى تجهيز الغزوات ، ورفيق الرسول(ص) فى الغار، ودليل عظم منزلة أبى بكر عند ربه: ذكره فى القرآن الكريم فى قوله تعالى «إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا»(٢) .

فالصديق أبو بكر هو المقصود مما أبهم فى الآية السابقة حيث إنه حلف - لما رأى براءة ابنته عائشة - أن لاينفق على مسطح من فقراء المهاجرين الأولين الذين شهدوا بدراً ، وكان ابن خالته .

---

(١) النور : ى/ ٢٢ .

(٢) التوبة : ى/ ٤٠.

إذن المراد من الإبهام بالصفة هو تعظيم أبى بكر، وذلك لما فى التكنية بهذه الصفة من التفخيم والتعظيم ، لأنه مدح على مدح لأول الخلفاء .

فما أروع الأسرار البيانية، عندما نقف على حقائقها فى البلاغة القرآنية[١] .

ومما هو من هذا القبيل : قوله تعالى : «والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون»[٢] . فالمراد بـ (الذى) هو رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ليشير القرآن بهذه الصفة التى أعقبت الإسم الموصول، إلى تعظيم كل من المنزَّل - القرآن -والمنزَّل عليه، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

هذا التعظيم للرسول الكريم هو السر البلاغى الكامن فى هذا الإبهام .

وإنما جاء الجمع فى قوله (أولئك هم المتقون) نظراً لدخول أتباع رسول الله (ص) معه، على سبيل التبعية .

وعليه فقوله (والذى جاء) يعود على رسول الله (ص) ، وقوله (وصدق به) يعود على أبى بكر، أو على كل مصدق،

وبالنسبة لما تقدم فقد بان لنا، ما فى إبهام الاسم والإتيان بالصفة من بلاغة، وحسن بيان، يعجز عن حصرهما الإنسان[٣].

---

(١) الكشاف ٣/٢٢٥، الاتقان ٤/ ٨٠ ، وروح المعانى ١٨/١٢٥، ودلائل الإعجاز ص١١٠، والإسرار ص٣٣٣ .

(٢) الزمر : ٣٣ .

(٣) ينظر : الكشاف ٤/١٢٨، والاتقان ٤/ ٨٠، وروح المعانى ٥/٥٨، والصناعتين ص١٨٠، والمطول ص٢٨٨ .

الغرض السابع

إفادة التحقير بالوصف الناقص :

كما يكون الوصف مدعاة للتعظيم ، وعلو الشأن، ورفعه القدر وعظم الهمة، يكون أيضاً مدعاة للتحقير، والذم، والإهانة، والسخرية والاستهزاء بشأن هذا المبهم فى هذه الصفة .

وهذا الأمر فى غاية من البلاغة والبيان ، لما فيه من ملاءمة بين الأشخاص على قدر استحقاقهم ، ووضعهم في المنزلة اللائقة بهم، نتيجة ماصنعوا وقدموا من أعمال ، فالمرء هو الذى يضع نفسه فى المكان الذى يرتضيه لها .

وإذا كان الله تعالى أنعم على الإنسان ... بنعمة العقل، وجب ألا يضيِّعها ، ويجعله حارساً أميناً على النفس الأمارة بالسوء، لأن العقل إذا تحكم فى النفس جعل صاحبه فى مصاف الملائكة، أما إذا كان العكس، فيجعل صاحبه فى درجة أقل من الحيوان شأناً، لأن الحيوان لاعقل له، بخلاف الإنسان .

وعلى ضوء هذا نسوق بعض الشواهد القرآنية الدالة على التحقير بالوصف الذى ينقص من قدر الإنسان ، وينزل به إلى مصاف الحيوان : -

قوله تعالى : «إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيماً»[1].

---

(١) النساء : ى/ ٥٦ .

فالله سبحانه وتعالى أبهم المراد من الاسم الموصول:

«إن الذين كفروا »، ثم ذكر عقبه أقبح الصفات الذميمة الدالة على عظم حقارة من اتصف بها، وتفاهة عقله .

فالمراد من الاسم الموصول : (الذين) إما الذين كفروا بمحمد (ص)، واما الكافرون بسائر الأنبياء عليهم السلام، ويدخل أولئك فيهم دخولاً أولياً، وعلى الأول فالمراد بالآيات القرآن الكريم، أو مايعم سائر المعجزات المؤيدة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى الثانى : المراد بها مايعم المذكور ، وسائر الشواهد التى أتى بها الأنبياء عليهم السلام .

ولقبح وفظاعة ماوصفوا به جاء العقاب الأليم الذى صدر (بسوف) التى تفيد التهديد والوعيد، فيصليهم ناراً خاصة، وقودها الناس والحجارة، تنضج الجلود، وتقطع الأمعاء بحميمها، فيبدلون جلود غيرها، ليذوقوا العذاب من جديد ، وهكذا دواليك[1] .

ومما هو من هذا القبيل قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين»[2] .

---

(١) ينظر : الكشاف ٥٢٢/١، وروح المعانى ٥٨/٥ ، الشروح ١٤٤/٢، والصناعتين ص١٨٠، مختصر السعد ص١٠٧ .

(٢) الحجرات : ى / ٦ .

فأبهم فى الآية المراد من لفظ (فاسق) ،ولم يسمه باسمه،وإنما وصفه بأقبح صفاته، وأخسها ، لكى يحقر من شأنه، ويقلل من قدره، ويشير إلى خسته ووضاعته ، واسم هذا الفاسق الذى لم يصرح به القرآن : «الوليد بن عقبة بن أبى معيط»، أرسله الرسول (ص) إلي الحرث بن أبى ضرار الخزاعى لجمع الزكاة، ولكن الوليد لم يكمل المسير إلى الحرث، بل رجع إلى رسول الله (ص) يقول له : إن الحرث منعنى الزكاة، وأراد قتلى ، فلما أقبل الحرث وسئل عن ذلك، قال : لاوالذى بعثك بالحق مارأيت الوليد بن عقبة ولارآنى ، فنزلت فى شأنه هذه الآية لتصفه بأخس صفات النقص وهى الفسق، وهو أعم من الكفر ، ووصف الإنسان به لم يقع فى كلام العرب، والظاهر أن المراد به هنا المسلم المخل بشئ من أحكام الشريعة ، أو المروءة ، بناء على مقابلته بالعدل .

وفى التعبير بـ (إن) الدالة على الشك إشارة إلى أن ذلك لايكون إلا فى القليل النادر، حيث لايليق بالمسلم ،وفى إخراج الفاسق عن الخطأ مايدل على تشديد الأمر عليه، من باب «لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن»، فالمؤمن لايكون كذاباً»[1] .

ومنه قوله تعالى : «إن شانئك هو الأبتر»[2] .

---

(١) ينظر : الكشاف ٤/٣٩٥ ، وروح المعانى ٢/١٦١، ونهاية الإيجاز : ص١٢٢، والنكت : ص٧٠، وأسرار البلاغة ص٣٣٣ .

(٢) الكوثر : ى/ ٣ .

ففى هذه الآية التى دفع بها الله عن رسوله ، آخذاً بحقه، راداً على المشركين سبهم له، قد أبهم الإسم المراد من قوله : (هو الأبتر)، ولم يسمه باسمه، وهو (أبو جهل) على أصح الآراء، لأنها نزلت فيه، فهو القائل عند وفاة (إبراهيم) ابن رسول الله (ص) ، (بُتِرَ محمد)، والسر البلاغى فى حذف الاسم وإبهامه هو الإشارة إليه بأخس الصفات الناقصة، تحقيراً ، ومهانة، وإذلالاً، ولذا قصرت هذه الصفة على أبى جهل.

وتلك هى عدالة السماء، يقتص الله من المعتدين، للذين يصبرون من أجل رضائه، ويجاهدون فى سبيله. «ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز»(١) .

ومنه قوله تعالى : «تبت يدا أبى لهب وتب»(٢) فأبهم الله تعالى المراد من قوله (أبى لهب) ، ولم يصرح باسمه، بل كنى عنه ببعض صفات النقص ليزداد قبحاً على قبح ، وتحقيراً لشأنه، وكراهية لذكر إسمه القبيح ، وهو : (عبد العزى بن عبد المطلب) .

والتب : الهلاك ، فهو دعاء بهلاك يديه، ثم كرر هذا الدعاء بقوله : (وتب)، ليكون دعاء عليه بهلاكه كله، وأطلق الله عليه هذه الصفة لجعلها كناية عن الجهنمى، فكأنه قيل : تبت يدا جهنمى،

---

(١) ينظر : البرهان ١/١٥٥، والإتقان ٤/٨٠ ، الكشاف ٤/٨٠٦، والمصباح ٧٦، وفن البلاغة ٢٧٤ .

(٢) تبت : ى / ١ .

لانتسابه إلى اللهب، وملازمته له، كما يقال فى عكس ذلك : (أبو الخير)، و(أخو الفضل) ، وذلك لمن يلابس هذه الأمور ويلازمها ، وعلى هذا فالانتقال من أبى لهب إلى جهنمى ، انتقال من الملزوم إلى اللازم، أو العكس، وذلك على اختلاف الرأيين فى الكناية .

وهذا الدعاء عليه ، رد على دعائه على رسول الله (ص) ، عندما كان يجمع قومه ويدعوهم إلى دين الله، فقال : (تَبًّا لك سائر هذه الأيام، ألهذا جمعتنا) ؟ فنزلت هذه السورة ، ردا على سبه ودعائه على رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣).

وبعد هذا البيان قد رأينا كم ازداد الأسلوب قوة وجزالة بسبب هذا الإبهام الذى أتى به القرآن الكريم، والمتمثل فى حذف الأعلام، وتلك هى بلاغة القرآن المعجز .

---

(١) ينظر : البرهان ١/١٥٥، والاتقان ٤/٧٩، الشروح ١/٢٧٨ .

الغرض الثامن

المبالغة فى الصفات للتنبيه على إرادة معين

ويتحقق هذا الغرض فى قول الحق عز وجل : «ولاتطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم، عتل بعد ذلك زنيم»[1] .

فالله سبحانه وتعالى أبهم الإسم المشار إليه بهذه الصفات ، التى جاءت على صيغ المبالغة ، من أجل الإشارة إلى إرادة إنسان بعينه، حتى يصبح معروفاً، ومشهوراً بهذه الصفات فيصيبه بسببها الخزى والشنار، ويفتضح على رؤوس الأشهاد جزاء ماقدم .

ولو استعرضنا هذه الصفات - على عجل لرأينا مدى ماتشير إليه من فظاعة، وقبح .

وليس أدل على ذلك من مجيئها على صيغ المبالغة ، للإشارة إلى أن هذا الاسم المبهم قد بلغ الغاية ،وتجاوز كل حد فى هذه الصفات التى تتنافى مع القيم الإنسانية .

فالله تعالى ينهى رسوله (ص) عن طاعة أمثال هؤلاء ، على طريق التهييج، والإلهاب، والمعني : دم يامحمد على عدم الطاعة لأمثال هؤلاء الموصوفين بهذه الصفات، فقال عز وجل: «ولاتطع كل حلاف» يعنى كثير الحلف، لما فى هذه الأيمان من الجرأة على الله تعالي . وفى هذه الآية زجر وردع لكل من اعتاد الحلف .

---

(١) القلم : ى/ ١٠، ١١، ١٢، ١٣ .

ثم قال (مهين) على وزن فعيل، من صيغ المبالغة أيضاً، بمعنى حقير الرأى والتدبير، وضيع، مكثار لفعل الشر. (هماز) : كثير العيب والطعن فى أعراض الناس، فيجعل من لسانه مِحْصَداً لأعراضهم (مشاء بنميم) : يكثر من نقل الحديث للإفساد والوقيعة، يحب النميمة، ويسعى لها، من أجل أن يوقع الفرقة بين الناس.

(مناع للخير) جامد بخيل لماله، يمسك على من حوله. (معتد) : ظالم جائر، لايرحم أحداً من ظلمه، وجوره. (أثيم): كثير الآثام. (عتل): شديد الخصومة، فاجر فى خصومته، (بعد ذلك زنيم) : أى : أن الأدهى، والأمر، هو أنه دعى لقيط، لايرجى خيره، ولايؤمل إخلاصه وتراجعه عما هو فيه.

فلا فائدة ترجى منه، ولذا قال الرسول (ص) «فرخ الزنا - أى ولده - لايدخل الجنة) فهذا دليل على عدم انصلاح حاله فى الكبر.

فالله سبحانه وتعالى قد ذكر لنا مجموع هذه الصفات، وأبهم فيها الموصوف، وأتى بها على صيغ المبالغة، لكى ينبه إلى إرادة شخص معين، قد دلت عليه هذه الصفات. وهو الوليد بن المغيرة المخزومى، على الأصح لأنه كان دعياً فى قريش، وقيل هو: الأخنس ابن شريق، وقيل : هو أبو جهل، وبعضده سبب النزول. وعلى كل فإن الغاية التى نريد الوصول إليها هى أن الله تعالى أبهم الاسم المراد فى الآية مُكَنِّياً عنه بصفات مبالغ فيها لغرض التعيين[1].

---

(١) ينظر : البرهان ١/١٥٥، ونهاية الإيجاز ص١٢٢، ومختصر السعد ص١٠٧، والمطول ص٢٨٨.

ومن هذا القبيل قوله تعالى : «ويل لكل همزة لمزة، الذى جمع مالاً وعدده»[1] .

فالمولى عز وجل أبهم المراد من هذه الصفات المبالغ فيها، لما فى ذلك من الدلالة عليه ، وتعيينه .

وبدأ سبحانه وتعالى بالويل : أى الهلاك والثبور لمن اتصف بما يأتى من صفات ، فقال : «ويل لكل همزة..»، ثم ذكر السبب فى استخفافه لهذا الدعاء، وهو (الهمز واللمز) يعنى : المشاء بالنميمة ، والمفرق بين الناس ، حيث إن المراد بالهمز: الطعن فى الناس، واللمز: الطعن فى الأنساب ، وقيل : الهمز: بالعين ، والشدق، واللمز باللسان .

وقد اختلف فى المراد من هذا الإبهام، فقيل: المراد به: أبى بن خلف، وقيل : الأخنس بن شريق، وقيل : أمية بن خلف الجمحى، لأنه كان يهمز النبى (ص) ، وقيل : هو الوليد بن المغيرة، وقيل: العاصى بن وائل، وقيل : قد يراد كل هؤلاء، وذلك لتحقق ماذكر فيهم دون غيرهم .

وأياً كان، فإن الله سبحانه قد أبهم فى هذه الآية الإسم المراد ، حيث قد ذكر من الصفات المبالغ فيها مايدل على إرادته ، وتعيينه[2] .

---

(١) الهمزة : ى/ ١، ٢ .

(٢) ينظر : الكشاف ٤/٧٩٤، وروح المعانى ٣٠/٢٩٤، والشرح ١/٢٧٤، والنكت ص٧٠، ومختصر السعد ص١٠٧، ودلائل الإعجاز ص١٢٣ .

وبعد :

فكم رأينا من وراء خفاء هذه الأعلام ، وإبهام المراد منها فى كتاب الله تعالى، من أساليب بلاغية ، وصور بيانية، ومبالغات تفوق الوصف، وكنايات تخفى فى طياتها أجمل البيان، وتشويق لمعرفة ما أبهم فتستريح بمعرفته النفس ، ومراعاة لمقتضى الأحوال بالنسبة للمخاطب فى كل منها .

وهذا النظم العجيب الدقيق الموحى، لايوجد فى غير القرآن .

ولهذا كان القرآن معجزاً ، ومتحدياً ، ومبهراً للعقول ، وشافياً لما فى الصدور ، وراوياً لغلة الصادى، وموقظاً لهمم المتأمل، وحاوياً لجميع ألوان البيان .

ويكفيه أنه كلام رب العالمين، الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم خبير .

وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم .

مراجع البحث

١ - الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى البابى الحلبى .

٢ - أثر النحاة فى البحث البلاغى د/ عبد القادر حسين ط . نهضة مصر

٣ - أسرار البلاغة . عبد القاهر الجرجانى المنار

٤ - البرهان فى علوم القرآن . للزركشى عيسى الحلبى

٥ - بصائر ذوى التمييز للفيروزابادى عيسى الحلبى

٦ - بغية الإيضاح: للشيخ عبد المتعال الصعيدى النموذجية

٧ - تأويل مشكل القرآن . ابن قتيبة عيسى الحلبى

٨ - دلائل الإعجاز . عبد القاهر الجرجانى المنار

٩ - روح المعانى . الألوسى دار الفكر

١٠ - شروح التلخيص. أصحاب الشروح . الحلبى

١١ - الصناعتين. لأبى هلال العسكرى الحلبى

١٢ - العمدة لابن رشيق القيروانى . السعادة .

١٣ - فن البلاغة د/ عبد القادر حسين نهضة مصر

١٤ - كنايات الأدباء / للجرجانى السعادة

١٥ - المثل السائر/ لابن الأثير نهضة مصر

١٦ - مجاز القرآن / لأبى عبيده الخانجى

١٧ - معترك الأقران / للسيوطى دار الفكر

١٨ - الكشاف / الزمخشرى دار الفكر

١٩ - النكت فى إعجاز القرآن /للرمانى دار المعارف